الحجاج في الشعر العربي القديم كتاب "الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني، بنيته وأساليبه" لـ: سامية الدريدي- أنموذجا-

د. عمر بوقمرة

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف– الجزائر

ملخص:

الحجاج نظرية غربية حديثة بُحثت من ثلاثة جوانب وهي: الجانب البلاغي مع **بيرلمان**، والجانب المنطقي مع **تولمين**، والجانب اللساني مع **ديكرو**، والذي يهمنا هو الجانب اللساني لجِدَتِه وتعلقه باللغة عموما والبلاغة خصوصا، وعليه فمقاربتنا تنطلق من مبدإ تداولي أرساه الألسني الفرنسي **أزوالد ديكرو**، إذ يعد البعد الحجاجي سابقا عن البعد الإخباري في الكلام، فكل كلام حسب هذه النظرية هو حجاجي بالقوة، قبل أن يقوم بدوره الإخباري الإعلامي، فالسمة الحجاجية منغرسة في اللغة أصالة.

وهذا البحث يجتهد في استغلال ما تقدمه نظرية الحجاج في اللغة من آليات في دراسة الشعر العربي القديم، من خلال كتاب "الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني، بنيته وأساليبه" والظفر بالمعنى الحجاجي المضمر فيه.

الكلمات المفتاحية: الشعر، الحجة، الحجاج، البلاغة، الإقناع.

Abstract:

the argumentation theory of modern western was examined from three points, namly: the rhetorical with **Perlman**, the logical with **Toulmin** ,and the linguistic with **Ducrot**,. The one which concerns us is the linguistic point for its modernity and attachment with language in general, and rhetoric in particular, and our approach is proceed from the principle pragmatic established by the French linguist **Oswald Ducrot**, as The argumentative dimension is considered as prior to the informative dimension of speech. According to this theory every speech becomes, therefore, argumentative force; before its declarative informative function. The sign argumentation is rooted in the language authenticity. This research strives to exploit what they offer argumentation theory in the language in the study of mechanisms of old Arabic poetry; and owns its implicit sense.

Key words: poetry, argument, argumentation, rhetoric, persuasion.

مقدمة:

الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه لـ: **سامية الدريدي:** وهي باحثة تونسية وأستاذة الأدب العربي القديم بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العربية بتونس، صدرت الطبعة الأولى للكتاب عام 2008م من نشر دارَيْ عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، وجدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع.

دوافع البحث: ذكرت **سامية الدريدي** في مقدمة الكتاب الدوافع التي جعلتها تبحث الحجاج في الشعر قائلة:" لكننَّا نؤكِّد أنّ اختيارنا هذه المدونة لدراسة الحجاج في الشعر لم يكن صدفة واتفاقا، وإنما تحكمه جملة من المبررات وتقود إليه عدة دوافع"[1]، وأوّل الدوافع أنّها اختارت دراسة الشعر العربي القديم مستلهمة نظرية غربية حديثة أملا أن يكون بحثها فتحا في موضوع لم يطرق من قبل قد يُتِمُّه آخرون[2].

لقد راعها طرائق تعامل الدارسين مع النصوص القديمة، وقصورها عن الإحاطة بهذا التراث الثرِّي والمعقد في آن "فمن الإجحاف في حقِّ هذا الأدب أن نردد مقولات نقدية من قبيل استقلال البيت وتعدد الأغراض، وأخرى شائعة متواترة من قبيل الاستهلال، والتخلص، ومُلحة الختام، والشاعر صوت القبيلة... الأمر الذي جعل أغلب الدراسات الحديثة للأدب القديم متشابهة في نتائجها بحكم

---

[1] الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني، بنيته وأساليبه: عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط،2008م، ج1، ص3.

[2] ينظر: المرجع نفسه، الجزء الأول، ص3.

تشابهها في منطلقاتها، فنظروا إلى القصيدة القديمة على أنَّها قصيدة مركبة متعددة الأغراض، والأخطر من ذلك أن وسَمَها الكثيرون قدوة بالمستشرقين بالتفكك والتشتت وتناقض الأجواء النفسية السائدة فيها"[1].

فالشاعر حسب رأيهم يتدرج من المطلع إلى المقدِّمة الطلية، ثم التخلص إلى الغرض الأوّل للقصيدة من فخر ورثاء وغزل ومدح وغيرها، ويُعَدُّ التخلص في القصيدة الجاهلية مرحلة حرجة لا يحسن تخطِّيه إلا الفحول من الشعراء، ثمّ تأتي الحلقة الأخيرة في القصيدة وهي الخاتمة[2]، دون أن ندرك سر هذا التدرج والانتقال، فكانت النتيجة أنُ وِصفت العقلية العربية بالقصور عن إدراك الكليات، والسذاجة في النظر إلى الجزئيات، إنّها أحكام متجنية ومتسرعة يجب أن نتجاوزها وذلك "متى غيَّرنا زاوية النظر وطوَّرنا أدواتنا المعرفية في دراسة هذا التراث الأدبي، وتجاوزنا الشرح البلاغي واللغوي البسيط للقصائد القديمة، أدركنا عمقها وثراءها، وقد نقف على منطق خفي يحكم بنيتها ويصل بدقة بين أجزائها المتناثرة في الظاهر"[3].

وثاني هذه الدوافع أنّها بحثت في بحثين سابقين شعر الخوارج، وشعر **الكميت ابن زيد؛** شاعر الشيعة (ت 126هـ)، فكان من ضمن ما خلصت إليه أن البعد الحِجاجي حاضر في الأثرين، إلا أنه أكثر قوة في شعر الكُمَيت، ولا غرابة

---

[1] ينظر: المرجع نفسه، الجزء الأول، ص1.

[2] ينظر: الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه- أعلامه- فنونه: غازي طليمات وعرفان الأشقر، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دمشق، سورية، ط1، ص 52 .54.

[3] دراسات في الحجاج، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم: سامية الدريدي، عالم الكتاب الحديث، ط1،2009م، ص2.

في ذلك فقد عُرِف به حتى كاد حديث القدامى عن الحجاج في الشعر يقتصر على شعره، وقد قال **الجاحظ** (ت255هـ):"ما فتح للشيعة الحِجاج إلا الكميت" هذه المقالة وغيرها جعلت كثيرا من النقاد المحدثين يعتقدون أن أوّل من احتجّ في شعره على صحّة المذهب الشيعي، وأقام أدلّته هو الكميت، بل جعلوه رائد مذهب جديد في الشعر وهو الحجاج[1]، والحقيقة أن بدايات الحجاج أبعد من ذلك بكثير، إنّها كامنة في جذور الشعر القبَلي من منافرات ومجادلات، "فالشاعر الجاهلي قادر على الاحتجاج قدرة الإنسان مطلقا على تبرير مواقفه، وإثبات آرائه وحمل الآخرين على التسليم بها"[2].

لقد أفزعتها طرق تعامل الباحثين المحدثين مع النصوص لتراثية المعقدة بإجحاف – على حد وصفها– ويتمثل ذلك في ترديد تلك المقولات البالية مثل استقلالية البيت، وتنوُّع الأغراض، والاستهلال والتخلص، وملحة الختام، والشاعر صوت القبيلة، الأمر الذي جعل نتائج البحث كلها متشابهة لتشابه المنطلقات، مما حدا بالمستشرقين إلى وسم القصيدة العربية بالتفكك والتهلهل، وحتى التناقض، ووصفت العقلية العربية بالقصور عن إدراك الكليات، والسذاجة في النظر إلى الجزئيات، والحل في رأيها هو تغيير زاوية البحث وتطوير الأدوات المعرفية والمنهجية في دراسة التراث الأدبي، وتجاوز تلك الشروح البلاغية واللغوية البسيطة–على حد تعبيرها– ولن يحدث هذا التطوير، ولن تُبَرَّأ العقلية العربية من القصور والسذاجة إلا باستلهام نظرية غربية حديثة، أملا أن تكون فتحا لبحثنا

[1] ينظر: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، ص 3 . 4.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 4.

وعيدا لباحثينا، تلك هي مبرراتها في هذا الفتح العظيم الذي اهتدت إليه وغاب عن جهابذة اللغة العربية وأئمتها، **كالجاحظ**، و**ابن الأثير**، و**ابن جني**، و**الجرجاني**، و**الزمخشري**، و**السكاكي**، وغيرهم من اللغويين والبلاغيين.

إن إشفاقها على الشعر العربي وعلى العقلية العربية من سهام المستشرقين المغرضين ومن حذا حذوهم من العرب قديما وحديثا، سوَّغ لها استلهام نظرية **ديكرو** في اللغة، وغيره من فلاسفة اللغة، وكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار، فبدل أن ترد على اتهامات المستشرقين الحاقدة على العرب وتراثهم انطلاقا منه، آمنت بها وراحت تعالجها من خارجه، وكان الفكر الغربي هو الداء والدواء في آن فمتى يتم للعرب البنيان؟

إن النقص ينتاب كل عمل بشري ومنه دراسات العرب لشعرهم ونثرهم كما يزعم المستشرقون ومن ركب مذهبهم من العرب المقلدين، ولكن يجب أن يُجري هذا المبدأ نفسه على النظريات الغربية عموما ونظرية **ديكرو** خصوصا، فهل نظرياتهم مُبَرَّأة من كل عيب ونقص؟ أم أن المكيال هنا تغير؟ كيف لنا أن نبخس حق تراث أمة بأكملها توارثته جيلا بعد جيل، ولم يشذّ منهم إلا قليل، وأثبت جدارته عبر القرون؟ ثم نخضعه لنظرية غربية فردية حديثة لم يمض على ظهورها إلا ثلاثة عقود من الزمن، وهي مدة غير كافية حتى لبلورة نظرية فضلا أن تنضج وتصبح عالمية قابلة للتطبيق على كل اللغات والثقافات، إن شيئا من ذلك لم يحدث، ومع ذلك نرى سامية كما رأينا صولة تقف عاجزة عن إبداء الرأي والنقد أمام هذه النظرية الدخيلة، فلم نر في بحثها ما يشير إلى ذلك لا من قريب ولا من

بعيد، وذلك حجة على ما وقر في قلبها من الإيمان المطلق بها، ألم تأمل أن تكون فتحا في هذا الموضوع؟!

أما الدافع الثاني الذي أغراها بالبحث في هذا المجال فهو دافع مشروع، وينبع من داخل التراث، وهو ما لمسته من حضور حجاجي في شعر الخوارج والكميت الشيعي، والحمد لله أنها ذكرت نِحلتيهما من خروج وتشيع، فلا عجب أن نجد شعراء الخوارج والشيعة ينافحون ويجادلون عن مللهم ونحلهم في أشعارهم، وكأن سامية لا تدرك أن الجدل ما أخرج شطأه ولا استغلظ واستوى على سوقه إلا في أحضان المتكلمين، وهذه قضية مُقرَّرة منذ القدم، فما بالها تدَّعي أنها خلصت إلى نتائج لم تسبق إليها؟ والجاحظ عندما يقول "ما فتح للشيعة الحجاج إلا الكميت" لا يعني أن بقية الفرق لم تعرف الحجاج، ولا أن الشيعة لم يعرفوه من قبل، وإنما غاية ما في القول أن الكميت أكثر منه حتى عُرِف به، ولنضرب مثلا على ذلك، فعندما نقول: **الجرجاني** صاحب نظرية النظم ومؤسسها، فهل هذا يعني أن الذين سبقوه لم يعرفوا النظم أصلا؟ هذا لم يقل به أحد، كيف والنقاد يقولون إن أوّل من ألف في النظم هو **الجاحظ** في كتاب سماه النظم لكنه مفقود، وتبعه على ذلك **الواسطي**، و**الرماني**، و**الخطابي**، و**القاضي عبد الجبار**، ثم جاء **الجرجاني** فوضع اللبنة الأخيرة في البنيان فنسبت له.

قضايا البحث: بحثَت في هذا الكتاب مجموعة من القضايا منها:

الحجاج في اللغة: وهي فكرة ترى أن "اللغة ذات بعد حجاجي في جميع مستوياتها البنيوية، حيث إن المرسِل المتكلم يستعمل الوحدات اللسانية وفق ما يريد تبليغه للمتلقي من معان وأفكار، وبالقدر الذي يتناسب، ويَبْني هذه الوحدات وِفق

الأغراض التواصلية المتنوعة، ولذلك عدَّ الباحثون بلاغة الحجاج وغايته في أن المرسل يتوقع ممن يوجه إليهم الكلام ردَّ فعل ينسجم مع المقاصد القولية التي فرضها المقام، وهذه الأخيرة منسجمة مع شكل البنية اللغوية المستعملة "ومن هذه الزاوية يصبح الحجاج بعدا جوهريا في اللغة ذاتها، مما ينتج عن ذلك أنه حيثما وجد خطاب العقل واللغة، فإن ثمة باستراتيجية معينة نعمد إليها لغويا وعقليا، إمّا لإقناع أنفسنا، أولاقناع غيرنا، وهذه الاستراتيجية هي الحجاج ذاته.. ويترتب على ما سبق أنّ الحجاج لا ينحصر في استعمالات خطابية ظرفية، وإنما هو يُعدُّ ملازما لكل خطاب على وجه الإطلاق، والسبب في ذلك أن كلّ خطاب حالٍّ في اللغة العربية، تمنحه هذه الأخيرة العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج، أي عناصر الاستدلال والتدليل"[1].

وهنا تكمن أهمية ومكانة الحجاج فيما يتركه من أثر إقناعي لدى المرسَل إليه، وهذا طبعا لا يأتي إلا باستخدام اللغة مما يدعم فكرة **أبي بكر العزَّاوي**، والتي " مفادها أننا نتكلم عامة بقصد التأثير وأن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج، وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية "[2].

وتنطلق في من فكرة أن اللغة حجاجية في جميع مستوياتها، وهي في ذلك ليست مبتدعة بل متبعة لـ: **ديكرو وأنسكومبر**، بلا أدنى مقاومة، ولذلك راحت تنافح عنها مؤكدة أنّ اللغة ذات بعد حجاجي بصفة جوهرية، وللأمانة العلمية فإن **سامية،**

---

[1] الحجاج والاستدلال الحجاجي ، عناصر استقصاء نظري: حبيب أعراب، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،العدد1،المجلد30،سبتمبر 2001م، ص 99 . 100 .

[2] سلطة الكلام وقوة الكلمات: أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل ، وزارة الثقافة والاتصال المغربية، السنة 25، العدد 62 . 63 ماي 2001م ، ص 142 . 143 .

وقبلها **العزاوي، وعبد الله وصولة، وحبيب أعراب**، وغيرهم من الباحثين العرب المحدثين، كلهم نهلوا من نظرية **ديكرو** وزميله، فكانوا نسخة منه وإن تفاوتوا في بعض الجزئيات التي لا ترقى لدرجة الاجتهاد، فكلهم استورد تلك النظرية وراح يبذرها في تربة غير تربتها دون أدنى مراعاة لشروط التكييف قبل البذر.

إنّ العلاقة القائمة بين هؤلاء الباحثين و**ديكرو** هي علاقة التلميذ بأستاذه، فها هو **العزاّوي** يصرح بأنّه تشرف بحيازة قصب سبق البحث في هذا المجال على المستوى العربي وبشهادة المستشرقين والمغاربة، وذلك حين سجل أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه الفرنسية تحت إشراف **ديكرو**، بعد صدور كتابه" الحجاج في اللغة "بمعية تلميذه وطالبه **أنسكومبر** بعام واحد، حيث صدر الكتاب عام 1983م، وتمّ التسجيل عام 1984م[1].

والمفارقة العجيبة أنّ **ديكرو** مكث أربعين عاما يدرس في اللغة الفرنسية الروابط والأدوات، ومكث ربع قرن من الزمن يدرس الفرق بين peu و un peu ليكتشف نظريته حسب زعمه[2]. فهل يعقل أن يمكث **ديكرو** هذه المدد الطويلة جدا قبل أن يصل إلى هذه النظرية، ونسارع نحن إلى التسليم بها ونقلها وتطبيقها دون أن نتريث عقدا أو عقدين للفحص والتمحيص لنتأكد من صلاحيتها لباقي اللغات والنصوص، أم إن الأمر لا يعدوإن يكون تسليما بما قاله الأستاذ المشرف **(ديكرو)**.

---

[1] ينظر: حوار حول الحجاج: أبوبكر العزاوي، الأحمدية للنشر، ط1، 2010م، ص99. 103.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص96.

خصائص النص الحجاجي:

في هذه القضية سردت أنواع النصوص لتصل إلى النص الحجاجي، وهدفه إقناع المتلقي وحمله على الإذعان، ولو دون اقتناع حقيقي، وذكرت خصائصه، مركزة على ما أورده كل من **(بنوا رونو)** و**(بيرلمان)** و**(تتيكا)**، هذا على وجه العموم. أمّا على وجه الخصوص فقد أوردت جملة من الحجج تثبت حجاجية الشعر منها ما أورده **الجاحظ** في كتابه البيان والتبيين أن شيخا من الأعراب تزوج جارية من قومه طمعا في الغلمان، فلما أنجبت جارية تركها وتزوج بغيرها، وذات يوم مرَّ بخِبائها وهي تهدهد بُنَّيتها وتقول:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا يظلُّ في البيتِ الذي يلينا

غضبانَ أن لا نلدَ البنينا تاللهِ ما ذاك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أُعطينا

فلما سمع الأبيات أثّرت فيه وجعلته يعدِّل في سلوكه، متجها إلى الخباء مقبلا عليهما معتذرا لهما بقوله: "ظلمتكما ورب الكعبة"[1]، ثمّ شرعت في سبر بعض وسائل أو تقنيات الحجاج اللغوية والبلاغية، كالأمر، والنهي، والاستفهام، والضمير المجهول، والمقام، والتكرار وغيرها." إنّه بحث عن مختلف الفنيات التي يعمد إليها الشاعر للإقناع أو الحمل على الإذعان، فنيات تتفاوت من نص إلى آخر، وتختلف من شاعر إلى شاعر، ولكنها تؤكد على كل حال أن الحجاج لا يعني حشد الحجج، وربط مفاصل الكلام، وتعليق بعضه بالبعض الآخر فحسب،

[1] ينظر: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، ص 70 . 71 .

بل يعني كذلك جملة من الاختيارات الأخرى على مستوى المعجم والتركيب، وأزمنة الأفعال، وصيغ الكلمات، وأنواع الصور، ومصادر التصوير"[1].

ولا شك أن هذه الاختيارات قائمة كلها على مراعاة المقام ومقتضيات الحال ولذلك كانت هذه النقطة أعني :المقام وأثره الحجاجي[2] في طليعة البحث.

ويلاحظ أن النقل السابق عن **سامية** فيه إشارة صريحة إلى أن الحجاج كامن في جميع المستويات اللغوية ماعدا المستوى الصوتي، وأعني بالمستويات الأخرى: المستوى الصرفي (الإفرادي)، والمستوى النحوي (التركيبي)، والمستوى البلاغـــي (التصويري)، والمستوى التداولي (المقامي)، فهل هذا يعني أنه لا اختيار على مستوى الأصوات ولا حجاج فيها؟ أم إن صعوبة البحث فيها ودقته جعلها تعرض عنه؟ وقد مّر معنا كيف أن **عبد الله صولة** سلَّم بأن للموسيقى والإيقاع الصوتيين أثرا إقناعيا، إلا أنه أقر بعدم اهتدائه إلى منهج يمكنه من توجيهها توجيها حجاجيا، لوعورة المسلك وقلة السالكين، ولكن لصولة عذره فهو يتعامل مع نص مقدس، الزلل فيه مجلبة لسخط الرب وألسنة العرب، بخلاف **سامية الدريدي** التي تتعامل مع نص أقل ما يقال عنه أنه ليس مقدسا، أظن أنها تشاطر صولة الرأي، ولذلك حاولت اختصار بحث مستوى الموسيقى فقالت فيه: "إن التخييل لا يتعارض مع الحجاج، بل على العكس يقتضيه اقتضاء، إذ لابد من جانب إقناعي يرفد المتخيل كي لا يتحول الشعر إلى ضرب من الهذر واللغو، فإذا

---

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص 88.

[2] ينظر: الحجاج في القول الشعري ، أبو الطيب المتنبي نموذجا : محمود طلحة اللغة والأدب، مجلة أكاديمية علمية يصدرها قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، العدد 19 ذو القعدة 1430هـ، 2000م، ص 340 .

كانت الموسيقى رافدا للتخييل فهي بالتالي عنصر مساعد في إنجاز عملية الإقناع"[1].

كما يلاحظ أيضا أن فكرة العدول (الاختيار) مازالت هي المحرك لفكرة الحجاج، فإذ كان صولة قد صرح بأن بحثه في الحجاج قائم على فكرة العدول الأسلوبية، فإن **سامية** قد وظفت مصطلحا مرادفا له، أو على الأقل ينتمي إلى نفس الحقل الدلالي، ألا وهو مصطلح الاختيار اللساني.

ولعلّ الشيء اللافت في هذه القول هو ارتكازها على بحوث غربية في حشر واستقصاء مميزات النص الحجاجي دون الرجوع إلى التراث العربي، خاصة ونحن نعلم أن علم المناظرة الذي هو رديف الحجاج والجدل أينع وأثمر في العصر العباسي على أيدي النظار المسلمين، وما أخشاه هوإن يكون هذا التجاهل ناجما عن احتقار واستصغار لما بناه هؤلاء الكبار، أما الاحتمال الآخر وهو جهلها بذلك فأمر ننزهها عنه من باب حسن الظنّ، نعم كان ينبغي على **سامية** وأمثالها أن تصرخ بعد اطلاعها على نظرية **ديكرو وبيرلمان** وغيرهما: " هذا ما وجدنا في تراثنا وزيادة "، إن تطور الدرس الحجاجي المعاصر أبرز " القيمة الاستثنائية التي كانت تمثلها مجالس المناظرة العربية القديمة، والأهمية النوعية للإسهام العربي الإسلامي الفريد في التنظير والتقعيد لطرائق الجدل وأساليب المباحثة "[2]، ومن المفارقات الدالة على هذه الدعوى شهادة العالم الفرنسي المتخصص في الحجاج

---

[1] ينظر: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، ص 128 .

[2] الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار: رشيد الراضي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2010 م، ص85.

"**كريستيان بلانتان**" حين ذكر في أحد كتبه الحديثة له في موضوع الحجاج أن من بين أهم ما أُنجِز في الحجاج خلال القرن العشرين؛ كتاب أصول الفقه لـ: **محمد بن عبد الوهاب**[1]؛ الذي يبقى مجرد كتاب تمهيدي في هذا الباب، نهل من أمهات كتب المتقدمين، فكيف لو اطلّع "**بلانتان**" عليها كالإحكام في أصول الأحكام **للآمدي**، والإحكام **لابن حزم**، والمحصول **للرازي**، والمستصفى **للغزالي**، وإرشاد الفحول **للشوكاني**، وغيرها ؟ كيف لو سبر طرق الاستدلال عند الفقهاء و المتكلمين ؟ إني لا أريد من خلال نقل هذه الشهادة من باحث غربي متخصص في الحجاج، أن أثبت ما أدّعي فإنه ثابت ولاشك، ولكن من باب وشهد شاهد من أهلها وحسب.

أصناف الحجج:

استعرضت فيه أصناف الحجج حسب تصنيف **(بيرلمان و تيتيكاه)** في كتابهما "مصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة، "وهي لم تأخذه عنهما مباشرة بل أخذته عن عبد الله صولة في مقاله الموسوم بـ "الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج، الخطابة الجديدة **لبيرلمان** و**تيتيكاه**"[2]، ومن بين أنواع الحجج التي أوردت ما يلي:

---

[1] ينظر المرجع نفسه ،حاشية الصفحة 85.

[2] الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة ، بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، ص ، ص 190 .

- **حجاج التناقض وعدم الاتفاق:**

والمراد بالتناقض هوإن تكون هناك قضيتان إحداهما تنفي الأخرى وتناقضها، كأن يقال "المطر ينزل ولا ينزل"[1]، ومثاله في شعر النابغة **الذبياني:**

تَعْصِي الإلهَ وأنتَ تظهرُ حبَّهُ هذا لعمركَ في المقالِ بديعُ

لو كنتَ تصدقُ حبهُ لأطعتــهُ إن المحبَ لمن يحبُّ مُطيعُ.[2]

فالمحب مطيع لمحبوبه، ومن ادَّعى الحبَّ قولا وهو عاص فعلا، كان واقعا في التناقض، والحجاج في هذا النوع سبيله كشف النقاب عن التعارض الواقع في أطروحات الخصم، الذي غالبا ما يكون مدعاة للهزء .

- **حجاج التعدية:** وهي علاقة تسمح لنا بتعدية شيء ما يثبت لـ "أ" إلى "ب"، ثم من "ب" إلى "ج"، بحكم العلاقة التي توجد بين "أ" و "ج" اللذَيْن لا علاقة مباشرة تربط بينهما، مثالهما ما ورد في نص لطه حسين بعنوان "على درب المدينة"، حيث يربط ضرورة الحرية لتحقيق السلم، وضرورة التعليم لتحقيق الحرية

[1] الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال " مصنف في الحجاج . الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة ، بنيته وأساليبه: سامية الدريدي: ضمن كتاب :أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ،الهيئة العامع لمكتبة الإسكندرية، د–ط، د–ت، ص327 . 328 .

[2] ينظر :الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة ، بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، ص 193 .

إلى ضرورة التعليم لتحقيق السلم"[1]، ومن أشهر الأمثلة على ذلك وأوضحها تلك الحكمة القائلة: "عدو عدوي صديقي"، وما يستنتج منها "صديق عدوي عدوي".

-**حجاج التبذير**: وهي حجة تقوم على الاتصال والتتابع وأداتها "بما أن، أو ما يقوم مقامه[2]، ومثالها عند **بيرلمان:** بما أننا شرعنا في إنجاز هذا العمل وضحّينا في سبيله بما لو أعرضنا عن تمامه، لكان مضيعة للمال والجهد، فإنه علينا أن نواصل إنجازه"، وهذا التبرير يدفع صاحب البنك إلى تمويل المشروع وعدم التخلي عنه[3]، ويجب أن لا يُفهم من مصطلح التبذير معناه السلبي الذي يعني الإسراف في سرد الحجج الزائدة عن الحدّ، "وإنما يجب فهم التبذير بالمعنى الذي تتحدد بمقتضاه النجاعة الحجاجية، والقوة الإقناعية"[4].

-**حجاج الاتجاه:** وتتمثل في التحذير كقولنا: إذا تنازلت هذه المرة وجب عليك أن تتنازل أكثر في المرة القادمة، والله أعلم أين ستقف بك سياسة التنازل

---

[1] ينظر: الحجاج في المقام المدرسي ، ملاحظات حول تعليم الحجاج في المرحلة الثانية من التعليم الأساسي: كورنيليافون راد . صكوجي د– ط، د–ت، ص 23 .

[2] مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري: نعمان بوقرة ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط1، 2008م، ص 107 .

[3] الحجاج : أطره ومنطلقاته تقنياته من خلال " مصنف في الحجاج . الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه: عبد الله صولة، ضمن كتاب :أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 333 .

[4] ينظر: الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل ، بحث في الأشكال والاستراتيجيات: علي الشبهان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت ، لبنان، ط1، ص 153 .

هذه؟ أو التحذير من مغبة فشوّ ظاهرة ما، وهو ما يسمى حجة الانتشار، أو حجة العدوى، كقولهم أكلت يوم أكل الثور الأبيض[1].

- **حجج السلطة:** وتتفرع إلى حجج عدة تغذوها هيبة المتكلم، ومكانته ونفوذه وسطوته، وتتنوع السلطة في حجة السلطة تنوعا كبيرا "فقد تكون "الإجماع"، أو "الرأي العام"، أو "العلماء"، أو "الفلاسفة"، أو "الكهنوت"، أو "لأنبياء"، وقد تكون غير شخصية مثل "الفيزياء"، أو "العقيدة"، أو "الدين"، أو "الكتاب المقدس"، وقد يعمد في الحجاج إلى ذكر أشخاص معينين بأسمائهم، على أن تكون سلطة هؤلاء جميعا معترفا بها من قبل جمهور السامعين في المجال الذي ذُكِرت فيه"[2]. وقد رفض بعضهم هذه الحجة، لأنها لا تعتمد على استنتاج عقلي يقودنا حتما إلى نتيجة معينة، ولكن بمجرد أن فلانا قالها[3]ولذلك جرت العادة ألا ترِدَ حجة السلطة وحيدة، وإنما ترد مكملة لحجاج قد أشبع بحجج أخرى غير حجة السلطة [4].

- **المثل:** "ويؤتى به في الحالات التي لا توجد فيها عادة مقدمات، أو عند وجود بعض الخلافات حول قاعدة ما، والغاية من اعتماده حجاجيا هو دعم القاعدة وتكريسها، ومثاله: زيد الملك جنح للطغيان لأنه طلب حرسا خاصا، وهذه

---

[1] الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال " مصنف في الحجاج . الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه: عبد الله صولة ، ضمن كتاب :أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، ص 333 .

[2] المرجع نفسه، ص 335.

[3] ينظر: الحجاج في المقام المدرسي ، ملاحظات حول تعليم الحجاج في المرحلة الثانية في التعليم الأساسي : كورنيليافون راد صكوجي ، ص 27.

[4] الحجاج : أطره ومنطلقاته تقنياته من خلال " مصنف في الحجاج . الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه: عبد الله صولة، ضمن كتاب :أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 335 .

قاعدة خاصة لكن قد تعمم فتصير: طلب الملوك حرسا أمارة الطغيان، وعليه فكل من طلب حرسا خاصا به فهو طاغية"[1]، وهنا ندرك لماذا سميت بالحالات الخاصة؟ لأنها تنطلق من مثال مفرد "يُعتمَد لتعميم حكم ما، أو فكرة معينة، فيتأسس الواقع على ظاهرة مفردة يتم توسيعها بحيث تصبح حالة عامة لا مجرد حالة خاصة، ثم الانطلاق منها وبناء الواقع عليها"[2].

- **النموذج وعكس النموذج:** النموذج هو كائن يصلح سلوكيا ليس لتأسيس قاعدة وتكريسها فحسب، وإنما يصلح للحض والتحريض على عمل ما، من باب الاقتداء والأسوة وإن بدرجة غير مطلقة، إنّ ما يتمتع به كائن ما من خصال حميدة وفِعال رشيدة في نظر فئة معينة، تعد مقدمات داعية إلى التأسي، ولذلك يجب على الشخص القدوة أن يتنزه عن كل ما يشين صورته في أعين الآخرين، ذلك أن هفوة واحدة منه تبرر عشرات الزلات، والمثل العربي السائر يقول: إذا كان رب البيت ضاربا للدف فما على الأبناء إلا الرقص"[3]. أما حجة عكس النموذج فيها يكون الحث لا على الاقتداء والتأسي، بل على العكس من ذلك، إنها تدعو للقطيعة والانفصال عن الكائن الذي يمثل عكس النموذج، فقد ندعوا غيرنا للتأسي بنموذج معين ونحن في حاجة أيضا للتأسي، ممَّا يجرُّ الداعي والمدعو إلى الخوض في جدال مضحك، كالمثال الذي ضربه المؤلفان – **بيرلمان**

---

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص 336 . 337 .

[2] الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة ، بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، ص 243 .

[3] ينظر: الحجاج : أطره ومنطلقاته تقنياته من خلال " مصنف في الحجاج . الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه: عبد الله صولة، ضمن كتاب :أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، ص 336 . 337 .

وتيتكاه –: " قال الأب لابنه الكسول: كان نابليون في مثل سنك رأس فصله، فأجابه الابن: وفي سنك إمبراطورا "[1].

– **حجاج المقارنة:** وقد اختُلف فيها هل تدخل ضمن الحجج شبه المنطقية حسب رأي **بيرلمان** لأن جوهر المقارنة عملية قياس، وهي عملية رياضة خالصة؟ أم تدخل ضمن الحجج المؤسِسَّة لبنية الواقع حسب رأي **أوليفي روبول**، لأنها عملية تجريبية واقعية تنشد بناء الواقع؟ والرأي الثاني هو الذي رجحته **سامية الدريدي**، وتكون المقارنة حجة لأنها تمكن من تبرير أحد الطرفين انطلاقا من الطرف الآخر أو الآخرين، إلا أنه يشترط لدقة الحجة وفعاليتها انتماء أطراف المقارنة إلى نفس النظام أو المجال[2]، كمن يحتج لفضل المرأة فيثبت قيمة عمل المرأة عن طريق مقارنته بعمل الرجل، والحجاج الذي يكمن في هذه الحجة كالتالي: "إن كان الرجل يُشكر على عمل شاق، فكان بالأحرى لابد أن تشكر المرأة التي هي أضعف منه"[3].

كان بإمكان **سامية** ومن قبلها من الباحثين العرب المحدثين استثمار الحقل المصطلحي الثري المكنون في المدونة العربية واستحيائه في تحليل النصوص حجاجيا، وقد وقفت على تجربة ناجحة للباحث المغربي المُحدَث إدريس حمادي في بحث له تحت عنوان :" الحجة في الاستعمال القرآني إبراهيم وقومه

---

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص 338.

[2] الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة ، بنيته وأساليبه: سامية الدريدي: ص 248 .

[3] ينظر: الحجاج في المقام المدرسي، ملاحظات حول تعليم الحجاج في المرحلة الثانية في التعليم الأساسي: كورنيليافون راد صكوجي، ص 20 .

نموذجا "، اعتمد فيه على مصادر عربية خالصة، وهي القرآن الكريم، و"كشاف اصطلاحات الفنون" لـ: **تهانوي**، و"لسان العرب" لـ: **ابن منظور**، وبعض التفاسير، مقتصرا على المصطلحات القرآنية والعربية، كالحجة و الشبهة، والدعوى، والدليل، والمُدَّعي، والمدَّعَى عليه، والقضية، والخبر، والقياس، والاستقراء، والتمثيل، وغيرها من المصطلحات العربية الخالصة، ولم يحوجه ذلك إلى المراجع الغربية ومصطلحاتها[1]، وكل ذلك لم نجد له أثرا في بحثها.

خاتمة البحث:

– الحجاج في اللغة نظرية غربية حديثة، ظهرت على يد الألسني الفرنسي "**ديكرو**"، بعد ظهور كتابه "الحجاج في اللغة" عام 1983م، مفادها أن اللغة تحمل في جوهرها بعدا حجاجيا، وبعبارة أوضح أن من أهم وظائفها الحجاج، وتلقفها عنه الباحثون العرب ومنهم **أبو بكر العزّاوي المغربي، وسامية الدريدي** وغيرهما.

– حاول هؤلاء الباحثون تطبيق هذه النظرية على النصوص العربية ومنها الشعر العربي القديم، بل حاول بعضهم تطبيقها حتى على القرآن الكريم ومنهم **عبد الله صولة**، و**العزاوي**، قناعة منهم بهذه النظرية.

– لاحظت أن التقليد كان رابطا مشتركا بين هؤلاء الباحثين، وقليل منهم من أبدى تحفظاته وانتقاداته لها.

---

[1] الحجاج في الاستعمال القرآني– إبراهيم وقومه نموذجا–: إدريس حمادي، ضمن كتاب :الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزء الرابع : الحجاج والمراس: إعداد: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد ، الأردن،ط1، 2010م، ص 172 – 178.

– استطاعت سامية في كتابها أن تحلل نماذج من الشعر العربي القديم تحليلا حجاجيا، كشفت من خلالها زيف بعض المقولات التي صاحبت الشعر العربي القديم زمنا طويلا.

– سردت أنواع الحجج كما أوردها **بيرلمان وتيتيكا** وغيرهما، دون أن تذكر بأن بعضها من السفسطة والمغالطة، وما ينبني عليها من نتائج ليست صحيحة.

مصادر البحث:

1- الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه- أعلامه- فنونه: غازي طليمات وعرفان الأشقر، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دمشق، سورية،ط2002،1م.

2- دراسات في الحجاج، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم: سامية الدريدي، عالم الكتاب الحديث، ط2009،1م.

3- الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني، بنيته أساليبه: عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط،2008م.

الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة ، بنيته وأساليبه: سامية الدريدي.

4- الحجاج والاستدلال الحجاجي ، عناصر استقصاء نظري: حبيب أعراب، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد1، المجلد30، سبتمبر 2001م .

5- سلطة الكلام وقوة الكلمات: أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل ، وزارة الثقافة والاتصال المغربية، العدد 62 . 63 ماي 2001م..

6- حوار حول الحجاج: أبوبكر العزاوي، الأحمدية للنشر، ط1، 2010م.

7-الحجاج في القول الشعري، أبو الطيب المتنبي نموذجا: محمود طلحة اللغة والأدب، مجلة أكاديمية علمية يصدرها قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، العدد 19ذو القعدة 1430هـ ، 2000م .

8- الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار: رشيد الراضي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط 1، 2010 م.

9- الحجاج : أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال " مصنف في الحجاج . الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة ، بنيته وأساليبه: سامية الدريدي: ضمن كتاب :أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ،الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، د-ط، د-ت.

10- الحجاج في المقام المدرسي، ملاحظات حول تعليم الحجاج في المرحلة الثانية من التعليم الأساسي: كورنيليافون راد . صكوجي د- ط، د-ت.

11- مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري: نعمان بوقرة ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط1، 2008م.

12- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل ، بحث في الأشكال والاستراتيجيات: علي الشبهان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت ، لبنان، ط1، 2010 م.

13- الحجاج في الاستعمال القرآني- إبراهيم وقومه نموذجا-: إدريس حمادي، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزء الرابع: الحجاج والمراس: إعداد: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن،ط1، 2010م.